المجلة التاريخية الجزائرية

ISSN: 2572-0023 / EISSN: 2716-9065

https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/664

المجلد:06، العدد:01 (2022)، ص231-249

تطوّر المعرفة العربية عن بلاد السودان الغربي والأوسط خبر الإقليم في المصنفات الجغرافية العربية حتى نهاية القرن (4هـ/10م)

Evolution of the Arabic knowledge about western and central Sūdān

The region's information in the Arab geographical works until the end of the (4AH/10AD) century.

كريم محمد

جامعة سطيف 02 (الجزائر)

Krim.mohamed2@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الارسال:
2022/03/22
تاريخ القبول:
2022/04/17

الكلمات المفتاحية:
- ✓ السودان الغربي
- ✓ تحقيق الخبر
- ✓ مصادر جغرافية
- ✓ تطور المعرفة

الملخص:

تتشكل المعرفة عن مجال جغرافي نتيجة لمجموعة عوامل أهمها المشاهدة العينية، أو رصد الخبر من خلال ما يذكره الآخرون، أو مراكمة سماع، أو نقل عن تدوين، وتدريجيّا تتشكل في المخيال صور عن هذا المجال الجغرافي يكون واضحا أكبر كلما كانت أدوات الخبر صادقة وربما انعكست الصورة فتصبح مشوشة غير واضحة المعالم، ولاشك أن المجالات الجغرافية البعيدة كتلك الواقعة جنوب الصحراء والمعروفة ببلاد السودان أخذت تشهد حضورا متزايدا في المصنفات الجغرافية العربية، تحكمت في صناعة صورة هذا الإقليم في المخيال العربي في العصر الوسيط. يبحث هذا المقال آليات ذكر الخبر ونوع المعرفة المحقّق عن هذه المجالات حتى نهاية القرن الرابع هجري (10م).

Article info

Received:
22/03/2022
Accepted:
17/04/2022

Key words:
- ✓ Western Sudan
- ✓ achieve news
- ✓ geographic sources
- ✓ knowledge development

Abstract:

Knowledge about a geographical field is formed as a result of a group of factors, the most important of it is eye-witness, or reporting the news through what others declared, or accumulating hearing, Gradually, images about this geographical area are formed in the person's imagination, It becomes more clear, and perhaps becomes confused and unclear, there is no doubt that distant geographical areas, such as those located south of the desert and known as the countries of Sūdān, began to witness an increasing presence in Arab geographical works, which controlled the image of this region in the Arab imagination in the medieval era .This article examines the mechanisms of reporting the news and the type of knowledge achieved in these areas until the end of the fourth century AH (10AD).

مقدمة

شكّل ظهور الإسلام وانتشاره في القرن الأول هجري (07م)، محطّة فارقة في التاريخ العلمي والمعرفي للعرب، فقد أخذ الاهتمام بعلوم الهيئة والفلك، والجغرافيا الطبيعية والبشرية يأخذ منحًى متصاعدا، شجّع على ذلك أمور دينية متعلّقة بطبيعة الإسلام، كعالمية الرسالة ومركزية مكة والمدينة في بعض العبادات كالحج والعمرة، كما أنّ مركزية التسيير في دمشق الأموية، ثمّ بغداد العباسية، تطلّبت معرفة بالطرق والمسالك الموصلة إليهما، وكان في اتصال العرب بعلوم الفرس والهند واليونان، وترجمة تراثهم، قد مهّد السبيل إلى بداية تدوين وفق مناهج محدّدة، ضمّت الأشكال الأولى للمعرفة الإقليمية عن بلاد العرب والعالم.

في هذا الإطار بدأت تظهر لدينا أولى المصنفات الجغرافية العربية، وأخذت تعكس لنا المعارف التي تجمّعت للعرب عن بلاد الإسلام والمناطق والمجاورة له، وكثيرا ما شكّلت لنا هذه المادة الجغرافية كما عبّر عن ذلك المستشرق الروسي كراتشكوفسكي (krachkovsky) المصدر الأهم أو الوحيد لتاريخ حقبة معيّنة لقطر ما، (كراتشكوفسكي، 1693، ج1، ص03)، ولمّا كانت بلاد السودان على حدود بلاد الإسلام، فقد ورد ذكرها في أولى المصنّفات الجغرافية، وأخذ الاهتمام بأخبارها في تزايد واضح، وتدريجيا، توضّحت معالمها، وتطوّرت المعرفة عنها كغيرها من الحواضر الإسلامية الأخرى، يحاول هذا المقال تتبّع هذه المعرفة المحصّلة من المصادر الجغرافية العربية حتى زمن القرن الرابع هجري (10م) في محاولة للإجابة على الإشكالات التالية: **ماهي أهمّ المصادر الجغرافية التي ذكرت أخبارا عن بلاد السودان الغربي والأوسط وضمّت الأشكال الأولى للمعارف عن هذه المنطقة؟ وكيف تحصّلت للجغرافيين العرب هذه المعارف؟ وهل وضعوا مناهج وشروط محدّدة للخبر؟ ثمّ ماهي نوع المعارف الجغرافية التي قدّمتها مصنّفاهم ورسمت انطباع العرب عن هذه البلاد؟**

1. اهتمام كتب الجغرافيا ببلاد السودان الغربي والأوسط

لقد أحصى يوسف كيوك (Joseph Cuoq) في مدونته عن جميع المصادر العربيّة المهتمّة ببلاد السودان حتى نهاية القرن الرابع هجري (10م) خمسة وعشرين (25) مؤلفا عربيا تضمّنت مصنفاتهم إشارات عن بلاد السودان، (Cuoq, 1975)، من بينها عددٌ من المصادر الجغرافية، اهتمت بهذا الإقليم، وانقسمت في ذكرها أخبارا عن بلاد السودان بحسب نوع المنهج المعتمد في الكتابة إلى مجموعتين أساسيتين هما: المنهج الفلكي والمنهج الوصفي، **فما هو الفرق بينهما؟ وما هو نصيب كل منهما في ذكر معلومات عن بلاد السودان؟**

1.1. مساهمة مصادر الجغرافية الفلكية في ذكر أخبار بلاد السودان

كان من حصيلة ما ترجم العرب في عهد الخليفة العباسي المنصور الكتاب المعروف بـ "**السندهند**" أو الحقيقة المطلقة (نالينو،1993م، ص150)، وبعد ارتقاء المأمون العرش في سنة (198هـ/811م) استدعى إلى قصره عددًا من العلماء، وكلّفهم بالقيام بترجمة عددٍ من الكتب من اللّغات الأجنبية – معظمها من

الإغريقية– إلى العربية، وكان كتاب "**المجسطي**" من بين المؤلفات التي شملها نشاط العلماء المترجمين (ابن سعيد، 1982، ص32).

يُشير كراتشكوفسكي إلى التأثير الكبير الذي أحدثته ترجمة هاذان الكتابان في التّصانيف الجغرافية اللاّحقة (كراتشكوفسكي، 1693، ص ص 79–81)، فقد بدأ الكُتَّاب العرب يحاكون هذا النموذج في تآليفهم وضمّنوها معارفهم الخاصة التي اكتسبوها نتيجة ترحالهم واتساع أفقهم، فظهر لنا منهج في التصنيف يسمّى بـ "**الجغرافيا الفلكية**".

إنّ استقصائنا للمادة الخبرية الواردة في مثل هذه النصوص، يُبيِّن لنا بأنّ خمسة مصادر ضمن هذا المنهج حملت بعض الأخبار المتعلقة بلاد السودان وأصحابها هم:

1.1.1.أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الفزاري(ت بعد 180هـ/796م): (الدفاع، 1993، ص41)

تَنسب المصادر إلى هذا الشّخص مجموعة متنوّعة من المؤلّفات، فهو صاحب كتاب "**الزيج**" و"**القصيدة في هيئة النجوم والفلك**"، ضاعت برمّتها، ولم يصلنا منها إلاّ بعض القطع عند ابن قتيبة والمسعودي (المسعودي، 1973، ج2، ص234) وياقوت وابن النديم (النديم، د.ت، ص332)، وابن القفطي والصفدي (الصفدي، 2000،ج1، ص251)، وبالعودة إلى ما خلّفه لنا الفزاري، فإنّنا نجده يورد بعض الإشارات عن بلاد السودان تُعتبر الأولى من نوعها، حيث قدّمت لنا ذكرا لبعض المناطق الدّاخلية لهذه البلاد، لم يسبقه إليها مؤلف عربي.

2.1.1.الخوارزمي (ت بعد 232هـ/846هـ): (كراتشكوفسكي، 1693، ج1، ص99)

مؤلَّفه "**صورة الأرض**"، وهو عبارة عن جداول فلكية أشبه بالأزياج منه بكتاب جغرافي اعتيادي، قُسّمت فيه الصفحة إلى ثلاثة أعمدة، يشتمل الأول منها على اسم الموضع، والثاني خط طوله، والثالث خط عرضه، وقد بدأ الخوارزمي بالمدن، ثمّ بالجبال، ثمّ بالبحار، ثمّ بالجزر، ثمّ بالعيون والأنهار (شاكر، 1986، ص20)، ويُقسّم المعمور من الأرض إلى سبعة أقاليم تمتد من الغرب إلى الشرق فوق دائرة عرض16° (السيد، 1984، ص487)، ويجعل بلاد السودان في الإقليم الأول، ويذكر بعض ما جمعه عنها من معارف وأخبار.

3.1.1.البتاني (ت 244 هـ،318هـ/856م، 929م)

يشير يوسف كيوك إلى أنّه لم يصلنا من كتبه إلا كتاب "**الزيج**" على شكل جداول فلكية مثل طريقة الخوارزمي، وفيها أشار إلى مملكة غانا، محدّدا طولها وعرضها (joseph, 1975, p75).

4.1.1.سهراب

كان معاصرا لأبي زيد البلخي (ت 322هـ / 934م) (نيقولا، 1987، ص32)، مصنّفه بعنوان "**كتاب عجائب الأقاليم السبعة**"، طريقته في التأليف تخالف طريقة الخوارزمي، ففي البداية يورد تعدادًا للمدن وأقسامًا للأقاليم المختلفة، ثمّ يليه وصفٌ للبحار والجزر وتعدادًا للجبال والمنابع والأنهار، ثم توزّع على الأقاليم

المختلفة، وتتمثّل أهمية كتاب سهراب في اتساع مادّته، إذ تزداد عنده عدد المدن السودانية المذكورة مقارنة مع الخوارزمي والبتاني (cuoq, 1975, p59).

5.1.1.البيروني (ت 362هـ، 440هـ/972م، 1048م)

له عدّة مؤلفات اشتهر منها كتاب "**الآثار الباقية في القرون الخالية**" و"**تاريخ الهند**"، اعتبره يوسف كيوك أحد أكبر علماء الإسلام (cuoq, 1975, p79)، ومع البيروني نحصل على تفاصيل أوفى عن بلاد السودان التي اعتبرها مصدرا العبيد، كما عيّن مواقع بعض المدن على نفس طريقة الجغرافيين الفلكيين السابقين.

2.1. مساهمة مصادر الجغرافية الوصفية في ذكر بلاد السودان

يُعنى هذا النوع من المصنّفات بوصف المسالك والممالك، فتُدرس الأرض وما بها من جبال وأودية وأنهار وسهول وصحار، ويُدرس الناس على أساس لباسهم وطعامهم ومعتقداتهم الدينية، ونُظمهم الاجتماعية ونشاطهم الاقتصادي في الإنتاج والتجارة (السيد، 1984، ص489)، ونجد ضمن هذا المنهج الوصفي نمطين متمايزين في الكتابة، يتمثّل الأول في **المصنفات البلدانية** (الفندي، 1982، ص ص111-112)، ويمكن أن نُدرج فيه كتابات **ابن خرداذبه (ت280هـ/893م)، واليعقوبي (ت284هـ/897م)، وابن الفقيه (ت290هـ/903م)، والمسعودي(ت346هـ/957م)**، تناول هؤلاء الكتاب وصف العالم في عمومه مع تركيز أكبر على الدولة العباسية، ولم يكن حظ بلاد السودان فيها إلاّ بعض الإشارات العرضية التي جاءت في إطار الحديث عن الأجزاء الغربية للدولة العباسية، أو عندما يتعلّق الأمر بالإشارات إلى التّجارة المغربية، والامتداد الجغرافي للدول المغربية المستقلة عن الخلافة العباسية إلى الجنوب، ويتّخذ موقع بلاد السودان في التقسيم الإقليمي عند هؤلاء الكتاب أشكالا عديدة، فابن خرداذبه وابن الفقيه يقسّمان العالم إلى أربعة أقسام، ويجعلان بلاد السودان ضمن الجزء الرابع الذي يسمّيانه "**لوبية**" (ابن خرداذبه، 1889، ص155) (ابن الفقيه، 1885، ص7)، وأمّا اليعقوبي صاحب كتاب "**البلدان**" فله نفس التقسيم الرّباعي، غير أنّه يورد أخبار بلاد السودان ضمن الربع الثالث الذي أطلق عليه مصطلح "**الجربي**" وهو ربع الشمال في تقسيمه للأقاليم، وأمّا المسعودي فالأقاليم عنده ممثّلة في شكل ستّ دوائر تحيط بدائرة في المركز، يمثل الإقليم الأول "**مركز الدنيا**" كونه مقرّا للخلافة العباسية، ويضمّ أرض بابل، وخراسان وفارس والأهواز والموصل وأرض الجبال، وأمّا السودان فقد أوردها في الإقليم الثاني مع كل من الهند والسّند (المسعودي، 1973،ج1، ص87)، ولم يهتم أصحاب هذه المدرسة بالخرائط واكتفوا بذكر تصوّرات ذهنية لشكل الدنيا التي جعلوها على شكل طائر رأسه الصين وذنبه بلاد السودان(ابن الفقيه، 1885، ص119) .

وأمّا النوع الثاني فهي **المصنّفات الإقليمية**، وفيها اهتمّ أصحابها بوصف أقاليم العالم الإسلامي فقط دون غيرها من الأقاليم، ويمكننا أن نجمع فيها كتابات كل من **الأصطخري (ت340هـ/951م)، والمقدسي (ت 387هـ/997م)، وابن حوقل، (ت367هـ/977م)**، يسمّي جمال الفندي هذه المدرسة بالبلخية، ذلك أنّ واضع

أسسها هو أبو يزيد البلخي (الفندي، 1982، ص125)، تخلّى فيها عن فكرة الأقاليم السبعة، وأخذ بتقسيم دار الإسلام إلى عشرين جزءا، ومصطلح الإقليم عنده مغاير لمعناه الأصلي، ويقصد به كيانات أرضية إسلامية (مايكل، 1983، ص175).

لم يهتم هؤلاء الجغرافيون بذكر أخبار بلاد السودان باعتبارهم كفارا، لم يصلوا بعد إلى درجة من التحضّر، فقد ورد عند كل من الأصطخري وابن حوقل قولهما: " ... **ولم نذكر بلد السودان في المغرب والبجة والزنج ومن في أعراضهم من الأمم، لأن انتظام الممالك بالديانات والآداب والحكم، وتقويم العمارات بالسياسة المستقيمة، وهؤلاء مهملون لهذه الخصال، ولا حظّ لهم في شيء من ذلك فيستحقوا به إفراد ممالكهم بما ذكرنا به سائر الممالك** ..." (الأصطخري، 1927، ص ص 4-5) (ابن حوقل، 1992، ص19)، وعلى الرغم من اقتصار أصحاب هذه المدرسة على وصف العالم الإسلامي فقط على حدّ تعبير روادها في مقدمات كتبهم (الأصطخري، 1927، ص2)، (المقدسي، 1906، ص9)، (ابن حوقل، 1992، ص10)، فإن بلاد السودان نالت نصيبا وافرا في كتاباتهم، ويتفاوت حجم المعلومات الواردة في هذه المصنفات باختلاف المصنّف، فالمعلومات تقلّ عند الأصطخري والمقدسي، وتظهر بوضوح أكبر عند ابن حوقل إلى درجة تجعلك تعتقد بأنّ ابن حوقل المتأخّر زمنيّاعن الإصطخري، قد خالف منهجه، وأدرج بلاد السودان ضمن حدود الدولة الإسلامية.

استحدث أصحاب هذه المدرسة طريقةً جديدةً في تقسيم الأقاليم، يلاحظ عليها اقتصارها على بلاد الإسلام، قُسِّمت إلى عشرين إقليما أشار إلى ذلك الأصطخري بقوله: ففصّلت بلاد الإسلام عشرين إقليما(الأصطخري، 1927، ص3)، وتميّزت هذه المدرسة عن غيرها بالمصوّرات الجغرافية (الخرائط)، يسمّيها كراتشكوفسكي "**بأطلس الإسلام**" (كراتشكوفسكي، 1693،ج1، ص197)، وفيه تظهر السودان جنوب بلاد المغرب، عليها أسماء بعض ممالكها المعروفة، وأمّا في الجنوب وحتى البحر المحيط، فتوضع البراري التي تنعدم فيها الحياة بسبب الحرارة الشديدة التي يسبّبها قرب الشمس من هذا الموضع على حد تفسير أصحاب هذه المصادر .

تُختتم مصنّفات المصنفات الجغرافية في القرن الرابع هجري بكتاب "**المسالك والممالك**"، للمهلبي (**ت 380هـ/990م**)، ويُعلّق آدم ميتز في كتابه "**الحضارة الإسلامية**" على هذا الكتاب بقوله: "... **وفي سنة (375هـ/975م) كتب المهلبي للخليفة الفاطمي العزيزي بالله كتابا في الطرق والمسالك، وهو أوّل كتاب عن وصف بلاد السودان وصفًا دقيقًا، وكان علماء الجغرافية في القرن الرابع لا يعرفون من أخبار السودان إلا قليلا جدّا**..." (ميتز، 1958، ج2، ص16)، لم يبق من هذا الكتاب إلا بعض الإشارات البسيطة موزّعةً على باقي المصنّفات الجغرافيّة ما يجعل التّعامل مع هذا المؤلّف أمرا صعبا.

2.طرق تحصيل الخبر عن بلاد السودان

تشكّلت المعارف عن بلاد السودان في المصادر الجغرافية بطريقتين:

1.2. الطريقة الأولى

وذلك بـ "**النقل**" من المصادر السابقة والأخذ عنها، فبعد أن كانت الأخبار الجغرافية اليونانية والسريانية مصدرا للمعرفة (نيقولا، 1987، ص17)، ظهرت مصادر عربية جديدة، شكّلت بدورها مصدرا للخبر لدى المتأخرين، وهذا النقل من المصنّفات السابقة نجد له ثلاثة أنواع:

نوع أول: يشير فيه الناقلون إلى مصادر الخبر بأمانة، كأن يقول المؤلّف: قال فلان ...، أو أن يقول مثلا: "**ووجدت في كتاب فلان كذا وكذا**".

نوع ثان: ينقل الخبر نقلا مباشرا، ولا يشير إلى مصادره، وربما زعم القول لنفسه كأن يقول: "**وجدتُ، ورأيتُ بأن** ..." .

نوع ثالث: يورد الخبر عن بلاد السودان لكنّه يقف منه موقف الحذر المتشكك، ويجعله من الأخبار المتداولة بين عامة الناس كأن يقول: "**زعموا، يُقال** ...".

2.2. الطريقة الثانية

وفيها نجد الأخبار الجديدة، وتضمّ الإضافات الشخصّية للمؤلف، وهي على ثلاث درجات من حيث صدقُها وتصويرها للحقائق التاريخيّة، فتكون المعلومات المحصّلة نتيجة معاينة ومشاهدة مباشرة أعلى هذه الدرجات، وتأتي المعلومات التي اعتمد فيها أصحاب المصنّفات على أشخاص وصلوا إلى هذه المناطق، ونقلوا معلوماتهم إلى أصحاب هذه المصنفات، ويختلف هؤلاء من حيث صدقهم في الأخبار، فشهادة رجل تاجر مثلا لا تعدل شهادة عالم أو فقيه، وتأتي بدرجة أقل، ذكر الأخبار المنتشرة في الوسط الذي كُتبت فيه المصنفات كذكر سواد لون بشرة سكان هذه الأقاليم مثلا.

3. منهج الفلكيين والجغرافيين في ذكر الخبر

1.3.الفزاري (ت بعد 180هـ /796م)

لا تُسعفنا المادة الخبرية المتوفّرة لدينا عن هذا الكاتب لإصدار حكم يخصّ مصادره في المعرفة، والطريقة التي أوصل بها إلينا أخبار بلاد السودان، إذ لا ندري فيما إذا كانت معارفه عن هذه الأقاليم جاءت عن زيارة، أم أنّها مجرّد نقل لمعارف ومعلومات سابقيه من خلال اطلاعه على الآداب اليونانية والهندية المترجمة إلى اللغة العربية، وهو الذي كلّفه المنصور بذلك، ولا ندري فيما إذا كان قد استقى معارفه من خلال علاقاته بالسلطة العباسية ما سمح له باستغلال بعض الوثائق المهمّة، وعلى الرغم من الإشارات التي نجدها في بعض المراجع المتأخّرة عن وصوله إلى دولة غانة (قاسم، 1996، ص25)، فإنّه من الصعب أن نقبل ذلك لعدّة أسباب منها مثلا حجم المعلومات التي أوردها عن بلاد السودان، فهي لا تتعدّى الإشارة إلى حصره لامتداد ملكتين في جنوب الصحراء (المسعودي، 1973، ج2، ص234)، كما أنّ النشاط التجاري في تلك الفترة التي عايشها، لم يكن بالقوة بمكان حتى يستقطب تجار المشرق، خاصة وأنّ بلاد المغرب كانت في فترة صراعات للانفصال عن السلطة العباسية، وهو ما يقلّل من احتمالية وصول الفزاري إلى بلاد غانة.

2.3.الخوارزمي (ت بعد 232هـ/846م)

عُني بدراسة مؤلف الفزاري "**السند هند**" وعمل منها نسخة مصحّحة (كراتشكوفسكي، 1693، ج1، ص99)، ويُشير كراتشكوفسكي إلى أنّه وضع كتابه "**صورة الأرض**" على هيئة "**زيج**"، (كراتشكوفسكي، 1693، ج1، ص100)، والكتاب ترتيب لمادة بطليموس في جداول مع إضافات واسعة، فقد كان بإمكان الخوارزمي استغلال أرشيف بيت الحكمة الذي وضعه المأمون (النديم، د.ت، ص333)، وربّما وفرّت له هذه المصادر بعض المعلومات عن مناطق جنوب الصحراء، خاصة إذا علمنا بأنّه لم يكن من الرحّالة الذين دخلوا البلدان، ثمّ إنّ منهجه الرياضي القائم على حسابات فلكية دقيقة، بعيدةٌ عن الوصف الذي يمكن أن يقدّمه له عالم أو فقيه أو تاجر .

3.3.ابن خرداذبه (ت280هـ/893م)

أثنى على كتبه المسعودي (المسعودي، 1973، ج1، ص14) جاءت إضافاته من صلته القوية بولاة الأمر آنذاك، فحصل على الوثائق الرّسمية التي استخدمها في مؤلفاته دون عناء يُذكر، كمّا أنّه كان قد نال احترام وتقدير وحظوة الخليفة العباسي المعتمد، فولاّه خدمة البريد بفارس (الدفاع، 1993، ص75).

4.3.اليعقوبي (ت 292هـ/ 905م)

نعرفه من كتابيه الموسومين بـ "**البلدان**" و"**التاريخ**"، وقد رسم اليعقوبي لنفسه منهجا محدّدا في الكتابة، اعتمد فيه على ملاحظاته الخاصة (ميتز، 1958، ج2، ص9)، وساعدته على ذلك أسفاره العديدة، يشير إلى ذلك بوضوح في قوله: "...**لأنّي سافرت حديث السّن، واتّصلت أسفاري، ودام تغرّبي**..." (اليعقوبي، 1918، ص 01) ، دخل المغرب دون غيره ممن سبقه من الجغرافيين، ومنها ووقف على بعض أخبار بلاد السودان، بحكم قربها الجغرافي، وبما كانت لها من علاقات مع المغرب، أشار اليعقوبي بوضوح إلى طريقته في قبول الأخبار في مصنّفه بقوله: "...**كنت متى لقيت رجلا من تلك البلاد سألته عن وطنه ومصره، وإذا ذكر لي محل داره، وموضع قراره، سألته عن بلده ذلك ...ثمّ أثبت كلّ ما يخبرني به من أثق بصدقه، وأستظهر بمسألة قوم بعد قوم، حتّى سألت خلقا كثيرا، وعالِما من الناس في الموسم، وغير الموسم، من أهل المشرق والمغرب، وكتبت أخبارهم**..." (اليعقوبي، 1918، ص01)، وممّا يؤكد قوله هذا هي التّعابير التي تجعله ينسب أخبار بلاد السودان لغيره، بقوله: "**بلغني**". يؤكّد كراتشكوفسكي بأّن اليعقوبي وفّى بمنهجه، والتزم بدقّة الخطّة التي اتّبعها (كراتشكوفسكي، 1693، ج1، ص159)، ولكن يعاب عليه عدم تصريحه بهوية الأشخاص الذين أخذ عنهم معلوماته، فلا ندري **هل هم من العلماء؟ أو من التّجار؟ ولا يخبرنا إذا كان هذا الشخص قد رأى ما حدّث به اليعقوبي بنفسه؟ أم أنّه مجرّد ناقل للأخبار عن غيره؟**

5.3.ابن الفقيه (ت290هـ/903م)

على الرّغم من تقليل المقدسي من هذا المؤلف (المقدسي، 1906، ص04)، وكذا ابن النديم الذي اعتبر كتابه "**البلدان**" مجرّد نقل من كتب غيره وخاصة من كتاب الجيهاني (النديم، د.ت، ص171)، إلاّ أنّه

يُعتبر الأكثر تقيّدا بعزو المعلومة إلى المصدر الذي أُخذت منه، وربّما يعود السبب في ذلك إلى كونه متضلّعا بعلم الحديث المبني في نقل الخبر على المتن والسند، جعله يطبّق هذا المنهج في كتابه "**البلدان**" خاصة في المعلومات التي تعلّقت ببلاد السودان، والنقل عنده نوعان:

النوع الأول: ينسب الكلام مباشرة إلى قائله حتى وإن بعد الزمن بينهما، مُسقطا من ذلك سلسلة الرجال الذين نقلوا الخبر، فهو يشير مثلا إلى حديث لعبد الله عمر بن العاص عن صورة الدنيا التي مُثّلت على هيئة طائر وكانت بلاد المغرب والسودان تشكّلان ذيل هذا الطائر(ابن الفقيه، 1885، ص ص3-4)، ويورد نفس المعلومة في صفحات أخرى من الكتاب، ينسبها للحكماء دون الإشارة إلى أسمائهم أو صفاتهم (ابن الفقيه، 1885، ص119)، يأخذ أوصاف السودانيين من شخص اسمه "**زادان فروخ**" الذي أوقفه الحجاج بن يوسف بين يديه وسأله عن العرب والعجم (ابن الفقيه، 1885، ص114)، وأمّا عن امتداد بلاد السودان، فهو يأخذ معلوماته عن "**أبو خلف**" (ابن الفقيه، 1885، ص4)، ثمّ يشير إلى وجود نيل في بلاد أنبية من كلام "**للمشتري بن الأسود**" (ابن الفقيه، 1885، ص64) الذي يزعم بأنّ معلوماته هذه كانت نتيجة معاينة ومشاهدة مباشرة .

النوع الثاني: وفيه ينقل عن غيره، لا يسمّي مصادره بأسمائها، ينسب المعلومات لغيره فيوردها بتعبير "**قالوا**" أو "**قُسّمت**" بناء للمجهول، وأحيانا يخصّص من هذا العموم بنسب المعلومة للحكماء من بني عصره.

6.3.المسعودي (ت 346 هـ/957م) (الكتبي، د.ت، ج3، ص12)

له مجموعة متنوّعة من المصنّفات أغلبها ضائع منها كتاب "**أخبار الزمان**" يضمّ ثلاثين مجلّدا، لم يبق منه إلاّ جزؤه الأول(حميدة، 1995، ص 310)، ثمّ ألّف بعده "**مروج الذهب ومعادن الجوهر**"، وقد ذكر أنّه اختصر فيه ما كان ذكره في "**أخبار الزمان**" و"**الكتاب الأوسط**" (المسعودي، 1973، ج1، ص10)، كما وصلنا من كتبه أيضا جزء من كتاب "**التّنبيه والإشراف**" (المسعودي، كتاب التنبيه والإشراف، 1893)، وقد أشار ابن خلدون إلى أنّ كتب المسعودي فيها من المطعن والمغمز ما هو معروف عند الإثبات، ومشهور بين الحفظة الثّقات، إلا أنّ من جاء بعدهم اختصهم بقبول أخبارهم واقتفى سننهم (ابن خلدون، 2000، ج1، ص7)، وعلى العموم فهذه الكتب تحتوي إشارات تخص بلاد السودان.

لم يوضّح لنا المسعودي منهجه في اعتماد الخبر عن بلاد السودان، ولا عن غيرها من باقي البلدان، لكن الإشارات التي تضمّنها كتابه، تمكّننا من الوصول إلى بعض النتائج المهمّة التي مكّنت المسعودي من أن يورد فصلا مستقلا في كتابه عن بلاد السودان بعنوان "**فصل في ذكر السودان وأنسابهم واختلاف أجناسهم وأنواعهم وتباينهم في ديانتهم وأخبار ملوكهم**" (المسعودي، 1973، ص ص 4-31)، وهو فصل ركزّ فيه جلّ اهتمامه على وصف الأجزاء الشرقية من بلاد السودان، فقد كان قد وصل إليها في رحلاته مع التجار، فكان كلامه عن السودان الشرقي مبنيّا على معاينة ومشاهدة مباشرة، لكنّه لم يستطع التوغل أكثر من ذلك إلى الغرب، وبالتالي فكلامه عن السودانيْن الأوسط والغربي، حصل له من اعتماده على المادة المتوفّرة في الكتب

السابقة، وكان قد عُرف عنه سعة اطلاعه ونقده للمصادر، وقد تبنّى بعض الأقوال التي اعتقد فيها الصّدق عند مؤلفيها، فيكرّر مثلا أقوال "**ابن خرداذبه**" بخصوص امتداد أرض الحبشة وسائر بلاد السودان (المسعودي، 1973، ج1،ص164)، وعن خصال الجنس الأسود، فهو يستمد أقواله عن طبيب يوناني يدعى "**جالينوس**" (المسعودي، 1973، ص ص 81-82)، و"**يعقوب ابن إسحاق الكندي**" (ابن خلدون، 2000، ج1، ص109)، كما أن المسعودي حفظ لنا إشارات عن مناطق جنوب الصحراء نقلا عن كتب أخرى ضائعة، كانت متوفّرة في زمنه، وأما المعلومات التي لم يستطع تتبّعها أو التّأكد من صحّتها، فإنّ المسعودي يقف منها موقف الحذر، ويسبّقها بمصطلح "**زعم**" كما فعل ذلك مع الأخبار التي أخذها عن الفزاري (المسعودي، 1973، ج2، ص235). بخصوص امتداد ممالك جنوب الصحراء، ومعلومات أخرى كثيرة بقيت من دون مصدر ناقل لها.

7.3.الأصطخري (ت 338هـ/950م)

اعتمد في تصنيف مؤلفيْه "**كتاب الأقاليم**" و"**المسالك والممالك**" على رحلاته لطلب العلم والمعرفة في الآفاق الإسلامية، وعلى ما نقله من كتاب "**صور الأقاليم**" لأبي زيد البلخي (حسن، 1981، ص36)، وأقرب نقطة وصلها من بلاد السودان هي مصر، ومصادره عن هذه المنطقة شفهية، لا ينسب الأخبار لأصحابها، ويكتفي في خبر السودان بتعابير "**وبلغني**" (الأصطخري، 1927، ص7،11) و"**يُقال**" (الأصطخري، 1927، ص40).

8.3.ابن حوقل (بعد367هـ/بعد977م): (الزركلي، 2002، ج6، ص111)

حُفظت لنا مادته التي جمعها في كتابه "**المسالك والممالك**" (ابن حوقل، 1872)، أو "**كتاب صورة الأرض**" (ابن حوقل، 1992)، ومع ابن حوقل نشعر بالرغبة العميقة في التعرّف على جنوب الصحراء، ففي سنة (**340هـ/951م**) زار مدينة سجلماسة، ومنها دخل الصحراء، ووصل إلى مدينة أودغشت من بلد للسودان، ومن ثمة اكتسبت أقواله ومعلوماته عن الصحراء أصالة ومصداقية بالغتي الأهمية، لم تجد المصادر اللاحقة بدّا من تأكيدها ومسايرتها، إذ ليس من الأحسن أن نعتمد وثيقة يقول فيها صاحبها: "**شاهدت وعاينت**" (الشكري، 1999، ص 23).

استغرقت رحلات ابن حوقل ثلاثين سنة، زار خلالها العالم الإسلامي شرقا وغربا(حميدة، 1995، ص210)، كانت له هذه فرصة للتّحقّق من صدق الأخبار التي أوردها في مصنفّه، فوضع منهجا لذلك، فكتب يقول: "...**وكنت إذا لقيت الرجل الذي أظنه صادقا وأخاله بما أسأله عنه خبيرا عالما، فأجد عند إعادة الخبر الذي أعتقد فيه صدقه، وقد حفظت نسقه، وتأمّلت طرقه ووصفه، أكثر ذلك باطلا، وأرى الحاكي بأكثر ما حكاه جاهلا، ثم أعاوده الخبر الذي ألتمسه منه والذكر، ليسمع الذي استوصفته، وأطالع معه ما صدر مع غيره في ذلك بعد روية، وأجمع بينهما وبين حكاية ثالث بالعدل والسوية** ..." (ابن حوقل، 1992، ص283).

وإلى جانب رحلات ابن حوقل التي أوصلته إلى أودغشت، فقد اعتمد ابن حوقل أيضا على ما طالعه في المصنفات السابقة، فقد أشار إلى شغفه الكبير بقراءة المصنّفات خاصة تلك التي عُنيت بتوضيح المسالك والممالك(ابن حوقل، 1992، ص10)، إذ كانت عنده مجموعة كتب لا تفارقه في أسفاره خاصة كتاب "**المسالك والممالك**" لابن خرداذبه، كما كان التقاؤه بالأصطخري فرصة له ليراجع ويصحّح بعض أخطاءه ويتدارك بعض نقائصه (ابن حوقل، 1992، ص284)، إلى جانب هذا كلّه، فإنّه لم يقف عند حدّ النقل من المصادر الموثوقة فحسب، بل إنه عمل على تفنيد بعض الأباطيل التي تناقلتها الكتب كالامتداد الجغرافي الكبير لبلاد السودان على سبيل المثال (ابن حوقل، 1992، ص340). ومع ابن حوقل أخذت بلاد السودان تخرج من منطقة الظّل والهامش بالمعنى الاصطلاحي والجغرافي (الشكري، 1999، ص23).

9.3.المقدسي (ت 387هـ/ 997م)

يعتبره كلّ من مينورسكي وبروكلمان: "...**أكثر الجغرافيين المسلمين بريقا وأهمّهم في الوقت نفسه**" (مينورسكي، 1985، ص14)، (بروكلمان، د.ت، ج4، ص253)، ويُعتبر منهجه الأكثر صرامة من مناهج جميع المصنفات التي سبقته، فهو يشرح ذلك في مقدمة كتابه "**أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**"، يذكر الطريقة التي سلكها في جمع مادة كتابه إذ يقول: "... **وما تمّ لي جمعه إلاّ بعد جولاتي في البلدان، ودخولي أقاليم الإسلام، ولقائي العلماء والملوك، ومجالستي للقضاة، ودرسي على الفقهاء، واختلافي إلى الأدباء والقرّاء، وكتبة الحديث، ومخالطة الزهاد والمتصوّفين، وحضور مجلس القّصاص والمذكرين، ... ودوراني على التّخوم حتى حرّرتها، وتنقلّي إلى الأجناد حتى عرفتها** ..."(المقدسي، 1906، ص2).

ثمّ يشير في موضع آخر من الكتاب إلى مصادره، وطريقته المعتمدة في قبول أخبار دون أخرى، فقد بنى كتابه على ما شاهده وعقله بنفسه، بالإضافة إلى ما تحصّل عليه من معلومات نتيجة استقصائه الخبر من المسافرين فيقول: "...**وقد ذكرنا ما رأيناه، وحكينا ما سمعناه، فما صح عندنا بالمعاينة وأخبار التواتر أرسلنا به القول، وما شككنا فيه أو كان من طريق الآحاد، أسندناه إلى الذي منه سمعناه...**" (المقدسي، 1906، ص8) ويُضيف في موضع آخر بأنّه ينسب القول الذي لم يقبله عقله إلى قائله، أو أضاف إليه تعبير "**زعموا**" (المقدسي، 1906، ص3)، ثمّ إنّه بعد كل هذا نجده يحاول تجنّب تكرار ما ذُكر سالفا في المصادر التي سبقته، ويسعى من خلال ذلك إلى تقديم جديد للمعرفة وخبر الأقاليم (المقدسي، 1906، ص6).

لم تنل بلاد السودان اهتماما كبيرا في كتاب المقدسي، تكاد تكون معلوماته شحيحة، **فهل تفسير هذا راجع إلى تقيّده بمنهجه المقتصر على ذكر البلاد الإسلامية فقط، وبالتالي فبلدان السودان خارجة عن دائرة اهتمامه؟ أم أنّ الأخبار التي وصلته عن هذه المنطقة جاءته بطريقة يُشكّك فيها المقدسي ولم يقبلها، ماجعله يقصيها من كتابه؟** وإذا كانت قلّة المعلومات التي وصلتنا عن بلاد السودان الغربي والأوسط سببها

هذا التّحري العميق الذي طبّقه المقدسي على مصادر خبره، فإنّنا نضمّ صوتنا إلى قائمة المؤلفين الذين يجعلون المقدسي على رأس الجغرافيين العرب والمسلمين.

10.3.المهلبي (ت380هـ/990م)

يتحدّث محقّق الكتاب "**تيسر خلف**" في شأن مصادر المهلبي في الأخبار بقوله: "**ومن الواضح أنّ المهلبي أراد لكتابه أن يكون جديدا في كل شيء، فلم ينقل عن غيره من المصنّفين العرب الذين سبقوه في هذا العلم، ولم يشر إلى أي مصدر، كما أنّ الدّراسة المقارنة للنّصوص تجعلنا نجزم بأنّ معلوماته أصيلة حقّقها بنفسه، ومصدرها تجربة شخصية، وبحث ميداني...**" (المهلبي، 2006، ص19)، لكن –بمقابل ذلك، لا نجد عند المهلبي أيّ تصريح من شأنه أن يُفيدنا بوصوله إلى مناطق جنوب الصحراء، لكنّ مادته التي أوردها – لو لم تكن نتيجة معاينة ومشاهدة مباشرة – فإنها تعبّر بحال من الأحوال عن حقيقة أنّها أصيلة وفريدة عن سابقاتها، فقد تحدّث عن إقليم السودان بطريقة علمية مفصّلة لم يسبقه إليها أحد، فقد تناول النواحي الطبوغرافية والاجتماعية والاقتصادية، ممّا جعل هذا الكتاب من المصنّفات النادرة والمفيدة في هذا المجال، وبقي المصدر الوحيد لمن أراد أن يكتب عن إفريقية وخاصة القطر السوداني (الدفاع، 1993، ص122).

4.المعرفة العربية عن بلاد السودان حتى فترة القرن الرابع هجري(10م)

1.4. المعرفة المحصّلة في المصادر الجغرافية عن بلاد السودان حتى فترة القرن (2هـ/7م)

يتّفق الكثير من الباحثين (فيج،جي،دي، 1982) (الشكري، 1999) (NehemiaLevtzion, 1968)على اعتبار أنّ أوّل إشارة وصلتنا عن بلاد السودان تقدّم وصفا موجزا لهذه المنطقة تعود إلى نهاية القرن الثاني هجري الموافق لـ(08م)، هي تلك الإشارة التي حفظها لنا كلّ من المسعودي في كتابه "**مروج الذهب ومعادن الجوهر**" (المسعودي، 1973، ج2، ص234) والبكري في كتابه "**المسالك والممالك**" (البكري، 2003، ج2، ص62)، تعود للفلكي الفزاري نقلها المسعودي عنه من كتابه الضائع "**القصيدة**"، وتضمّنت الإشارة ما يلي: "**عمل غانة بلاد الذهب ألف فرسخ في ثمانين فرسخا، وعمل ورام مائتا فرسخ في ثمانين فرسخا**".

تُعتبر هذه الإشارة هي جلّ ما تمّ تسجيله من كتابات الفزاري عن بلاد السودان، أورد ضمن هذه الإشارة المختصرة اسمين لمملكتين سودانيتين، وحدّد مساحة كلّ منهما، وموقعها بالنسبة للأخرى، فمملكة وارم تقع شرق غانة– التي غانة تُعرف ببلاد الذهب، وهذا له دلالة واضحة على الارتباط الوثيق بين المنطقة والتّجارة المغربية خاصة تجارة الذهب.

2.4. المعرفة المحصّلة في المصادر الجغرافية عن بلاد السودان حتى القرن (3هـ/8م)

افتتح مطلع هذا القرن بكتابات "**محمد بن موسى الخوارزمي**" فلكي العصر العباسي، فقد عيّن لنا إحداثيات ثلاث مناطق من السودان الغربي والأوسط وهذه المدن هي: زغاوة وطولها 60,15° وعرضها 11,0°، وحدّد موقع كوكو بخطي طول 48,0° وخط عرض 10,15°، وأمّا مملكة غانة فقد حدّدها بخط

عرض 10,45° وبخط طول 44,30° (cuoq, 1975, p44)، وذكر من جغرافية غانة جبل "معرس" وبه عينٌ تخرج منه تصب في البحر، دون أن يتعمّق أكثر من ذلك.

وبعد الخوارزمي يُطالعنا "**ابن خرداذبه**" في كتابه "**المسالك والممالك**"، وفيه نجد أولى المحاولات لتحديد امتداد بلاد السودان ومساحتها، فذكر بأنّ أرض الحبشة والسودان مسيرة سبع سنين، وأرض مصر جزء واحد من ستين جزءا من أرض السودان، وأرض السودان جزء واحد من ستين جزءا من الأرض كلها. "(ابن خرداذبه، 1889، ص93).

في هذا التحديد لامتداد بلاد السودان، يفرّق ابن خرداذبه بين أجزاء المنطقة الشّرقية والغربيّة، بمعنى أنّه يفرّق بين الحبشة وبلاد السودان، فمصطلح "**بلاد السودان**" عنده، له دلالة جغرافية مكانيّة أكثر مما يدلّ على عامل اثني بشري، فهي المنطقة التي تبدأ حدودها من انتهاء دولة الأدارسة في الجنوب (ابن خرداذبه، 1889، ص89)، وتغيب عند ابن خرداذبه الإشارة إلى أجناس السودان وتقسيماتهم الإثنية ويكتفي بوصفه لهم بالغُراة على العموم (ابن خرداذبه، 1889، ص89).

وبعد ابن خرداذبه نجد كتابات الجغرافي "**اليعقوبي**" ولا يغامر كثيرا في وصف هذه البلاد، وما يتعلّق بامتدادها أو بمظاهر السطح المميزة لها، فهو مرة يجعلها قبلة سجلماسة (اليعقوبي، 1918، ص117) ثمّ يذكر موضعا منها يقال له "**غسط**"، وذكر بأنّ ملكها يغزو بلاد السودان كأنّه في ذلك يستثني هذه المنطقة من تسميّة بلاد السودان، التي يُدرج ضمنها كل ما هو مجهول من هذه المناطق.

اهتم اليعقوبي أكثر بالجغرافيا البشرية، وقدّم وصفا لمدينة "**غسط**"، وذكر بأنّ المريّين والزّغاويين كانوا مصدرا مهمّا للعبيد، كما نجد أيضا إشارات عن للجغرافيا الدّينية عندما ذكر بأن بكوار قومٌ من المسلمين (اليعقوبي، 1918، ص104) وذكر بأن ملك "**غسط**" لا دين له ولا شريعة (اليعقوبي، 1918، ص117). خصصّ اليعقوبي في كتابه التاريخ عنوانا باسم "**ممالك الحبشة والسودان**" (اليعقوبي، 1964، ج1، ص166)، وهو يفرّق بين السودان والأحباش، فالسودان عنده هم الذين اتجهوا إلى الغرب وهم: الزغاوه، والحسن، والقاقو، والمرويون، والمرندة، والكوكو، وغانه، ويعتقد اليعقوبي على غرار وهب بن منبه بأنّ هذه الشعوب تنحدر كلها من سلالة نوح وابنه حام (اليعقوبي، 1964، ج1،ص 166) (الطبري، 1987، ج1، ص125)، وتعدّ هذه الإشارات التي أوردها اليعقوبي أغنى إشارات عن بلاد السودان تفوق جل الإشارات التي وردت في بقية مصادر القرنين الثاني والثالث هجري الموافق لـ(08 و09م).

وبعد اليعقوبي نجد كتابات ابن الفقيه، فهو يعيدنا إلى المعلومات السابقة عن امتداد بلاد السودان، فإذا كان ابن خرداذبه جعل مساحة كل من الحبشة والسودان سبع سنين، فإن ابن الفقيه جعل مساحة بلاد السودان وحدها مسيرة سبع سنين (ابن الفقيه، 1885، ص59)، وذكر في موضع آخر من الكتاب أنها تمثّل نصف مساحة الأرض بامتداد يقارب اثنا عشر ألف فرسخ (ابن الفقيه، 1885، ص04). لقد حاول ابن الفقيه أن ينقل لنا التصوّر السائد للعالم المعروف في عصره، فقد مثّلته الحكماء على شكل طائر ووزّعت على أطرافه

الأقاليم المعروفة من العالم آنذاك، وكانت بلاد السودان تمثل ذنب هذا الطائر (ابن الفقيه، 1885، ص119)، وحاول ابن الفقيه أن يبعث عن فخر للسودان في هذا التشبيه، فذكر بأنّ ذنب الطائر هو أكبر شيء في جسمه، ما يعني أنّ عدد السودان أكبر من البيضان، فكفى بهذا وحده فخرا (النديم، د.ت، ص167). ذكر ابن الفقيه من أوصاف السودانين تفلفلا في الشعر، واختلافا في الأعضاء، ونقصانا في العقل، وفسادا في الشهوة، وكل ذلك مردّه إلى بقائهم مدة طويلة في أرحام أمهاتهم (ابن الفقيه، 1885، ص162)، ونَسب حمقهم حتى لبعض الأجناس التي تحاذي بلدانهم كأهل الحجاز مثلا (الطبري، 1987، ج2، ص487).

أما فيما يخصّ وصف دواخل بلاد السودان، فقد انفرد ابن الفقيه دون غيره إلى إشارته إلى وجود نيل في بلاد أنبية، وكلامه هذا نقل من كلام "**للمشتري بن الأسود**" الذي صرّح بأنه رأى النيل في إحدى غزواته العشرين لهذه المنطقة (ابن الفقيه، 1885، ص64)، ويرجح أن يكون هذا "**نهر السينغال**"، فيكون بذلك ابن الفقيه أول من أشار إلى هذا النهر، كما حاول ابن الفقيه أن يحدّد لنا مواقع إحدى مدن بلاد السودان عندما ذكر بأنّ المسافة الفاصلة بين مدينة "**طرقلة**" (cuoq, 1975, p54) آخر مدن السوس الأقصى، ومدينة غانة بثلاثة أشهر في مفاوز وقفار(ابن الفقيه، 1885، ص87)، وذكر بأنّ الذهب ينبت في بلاد غانة نباتا في الرمل كما ينبت الجزر، ويقطف عند بزوغ الشمس(ابن الفقيه، 1885، ص87)، وهو في ذلك يحاول أن يقدّم تفسيرا لوفرة الذهب في بلاد غانة التي يُفرق بينها وبين مدينة غانة.

وبعد كتابات ابن الفقيه نجد إشارات "البتاني" في كتابه "الزيج"، وفيه اكتفى بتحديد موقع غانة فكليا بخط عرض 17,0°، وبخط طول 10,0° (cuoq, 1975, p57)، مخالفا في ذلك ما ذكره فلكي آخر هو الخوارزمي، الذي حدّد موقع غانة بخط عرض 10,45° وبخط طول 44,30° (cuoq, 1975, p44).

3.4. المعرفة المحصلة في المصادر الجغرافية عن بلاد السودان حتى القرن (4 هـ/9 م)

تطالعنا مع بداية هذا القرن كتابات الفلكي "سهراب"، وهي إشارات بسيطة تمثل استمرارية للجغرافيا الفلكية التي تُعنى بضبط وتحديد المواقع الفلكية، وسهراب حدّد بعض المواضع من مناطق جنوب الصحراء، لكن يصعب التحقّق من التسميات التي أوردها، فباستثناء تحديده لغانة بخط طول 12,5°، وبدائرة عرض 32° (cuoq, 1975, p59) وهو تحديد يخالف بقية التحديدين المذكورين سلفا لكل من الخوارزمي والبتاني.

وبعد سهراب الفلكي تبرز لنا في منتصف هذا القرن كتابات الجغرافي الموسوعي "**المسعودي**" وتفوّق المسعودي يظهر في اهتمامه بالجغرافيا البشرية لبلاد السودان، فقد جعل سبب تعمير هذه البلاد ناتجة عن تفرّق ولد نوح في الأرض، ومسير ولد "**كوش بن كنعان**" نحو المغرب، فبعد أن قطع نيل مصر اتجهت طائفة من ولده للمغرب، وكوّنوا السودان وهم أنواع كثيرة منهم: الزغاوة والكانم ومركة وكوكو وغانة والدمادم (المسعودي، 1973، ج2، ص4)، ويُضيف من الأجناس الأخرى القراقر ومديدة ومريس والمبرس والملانة والقوماطي ودويلة والقرمة، وكل طائفة من هؤلاء على حدّ تعبيره له ملك ودار مملكته (المسعودي، 1973، ج2، ص20).

فسّر المسعودي علّة وجود السودان في هذه المناطق دون غيرها بالحرارة الشديدة في هذا المكان (المسعودي، 1973، ج2، ص221)، دون غيره من أماكن المعمورة، ونقل خصال السودان عن طبيب يوناني يدعى "**جالينوس**" فذكر تفلفل الشعر، وخفة الحاجبين، وتحديد الأسنان، ونتن الجلد، وسواد الحدق، وتشقّق اليدين والرجلين، وفطس الأنوف، وكثرة الطرب (المسعودي، 1973، ص ص 82-83).

يبدوا اهتمام المسعودي واضحا بالجغرافيا البشرية فنجده في كتابه "**أخبار الزمان**" يضيف عن المعلومات السابقة بعض الأمور المتعلّقة بالتّنظيمات السياسية للسودانيين، فوافق ما جاء في كتاب التاريخ لليعقوبي من أنّ "**مملكة كوكو**" هي أعظم ممالك السودان وأجلها قدرا، تخضع لها مجموعة من الممالك، يؤدّون حقّ الطاعة لملكها، كما أشار أيضا إلى وجود مملكتين أخريين هما كل من "**مملكة غانة**" المشهورة عند الجغرافيين السابقين و"**مملكة الدهدم**" التي يقطنها ملك كبير تحت يده عدة ملوك، كما ذكر بأنّ مملكة الزغاوة واسعة كبيرة (المسعودي، 1973، ص89).

تزداد المعلومات المذكورة عن الممالك السودانية أكثر تفصيلا عند ذكر علاقاتها التجارية مع الأجناس الأخرى في بلاد المغرب، فقد ذكر المسعودي بأنّ غانة تتصل ببلاد الذهب (المسعودي، 1973، ص88)، وقد وجد التّجار المغاربة فرصةً للانتفاع بهذه التجارة التي وصفها المسعودي بالصامتة (المسعودي، 1973، ص ص 88-89)، كما وردت مع المسعودي أولى الإشارات التي تخص العلاقات بين المجتمعات السودانية، فأشار إلى قبيلة "**الدهدم**"-القريبة من كوكو-يحارب أهلها بعضهم بعضا، وهم يأكلون الناس (المسعودي، 1973، ص89)، كما قدّم بعض المعلومات المتعلّقة بعقيدة بعض الأجناس السودانية دون أن يحدّد من هم من أمم السودان السالفة الذكر في أنّ لهم في بلدة قلعة عظيمة فيها صورة امرأة يتأهبون لها ويحجّون إليها (المسعودي، 1973، ص89).

وبعد المسعودي، يبرز لنا ما كتبه "**الأصطخري**" في كتابه "**المسالك والممالك**" وكتابات هذا الجغرافي تعبِّر عن تحسن واضح في معرفة هذه الأقاليم، فقد بدأ مفهوم بلاد السودان يتّضح مع الأصطخري فهو يفرّق بين مصطلحين لكل منهما دلالته المستقلة فتعبير "**بلاد السودان**" يشتمل على كل المنطقة التي تقع جنوب مصر وبلاد المغرب، تمتد من بحر القلزم شرقا، إلى البحر المحيط غربا، وأمّا تعبير "**بلد السودان**" فهو كما حدّده الأصطخري هي المنطقة التي جعلها في أقصى بلاد المغرب على البحر المحيط، وليس بينها وبين بقية الممالك اتّصال، غير أنّ له حدّا ينتهي إلى البحر المحيط، وحدّا له إلى برية بينه وبين أرض المغرب، وحدّا إلى برية بينه وبين أرض مصر على ظهر الواحات، وحدّا له إلى برية في الجنوب لا يثبت فيها عمارة لشدّة حرارتها، ومساحة هذه المنطقة -كما حددها الأصطخري - سبعمائة فرسخ في نحوها(المسعودي، 1973، ص ص 10-11)، وهي بلاد منعزلة، ليس بينها وبين بقيّة الممالك اتصال إلاّ من جهة المغرب وبوّابة الدخول إليها هي زويلة التي تُعتبر حدّا جنوبيا لبلاد المغرب، ومتاخمةٌ لأرض السودان (الأصطخري، 1927، ص40).

بعد هذا الوصف للجانب الطبيعي للمنطقة، حاول الأصطخري أن يُقدّم لنا ما انتهى إليه معرفته بالأجناس البشرية التي تستوطنها، فذكر ألوان سكان هذا الإقليم، وقارن بينها وبين سكان بلاد المغرب، وسكان الأقاليم الشّمالية، فخلُص إلى نتيجة مفادها أنّ هذه الأجناس السودانية تزداد سوادا كلما اتّجهنا أكثر إلى الجنوب، والعكس من ذلك صحيح (الأصطخري، 1927، ص5)، وهو الأمر الذي ردّه الأصطخري إلى عامل الحرارة الناجم عن قرب الشّمس من هذا الإقليم حتى تنعدم الحياة في الجنوب، ولم يذكر لنا الأصطخري من أسماء الأجناس السودانية، واكتفى بالقول بأنّهم ليسوا بنوبة ولا بزنج ولا بحبشة ولا من البجة، غير أنّهم جنس على حدة، أشدّ سوادا من الجميع وأصفى(الأصطخري، 1927، ص40)، واعتبرهم مصدرا مهمّا للعبيد (الأصطخري، 1927، ص46)، الذين يُخرَجون إلى بلاد المغرب عبر طرق ومفاوز صحراوية منقطعة، لا تسلك إلا من مواضع معروفة (الأصطخري، 1927، ص45).

وبعد الأصطخري، تطالعنا كتابات "**المقدسي**"، ومعه تتراجع المعرفة عن بلاد السودان مقارنة مع الجغرافيين الذين سبقوه، فقد اكتفى بذكر أنّ هذه البلاد تُتاخم أرض مصر وبلاد المغرب من جهة الجنوب (المقدسي، 1906، ص62)، وتسمّى عنده ببلدان السودان، والجهة الغربية من هذا المكان تُسمى "**بلد السودان**" وامتدادها اثنا عشر ألف فرسخا، وهي بلدان مقفرة واسعة شاقة (المقدسي، 1906، ص241)، وفي جبالهم عامة ما يكون في جبال المسلمين من الفواكه غير أنّ أكثرهم لا يذوقونه، ولهم فواكه أخرى وأغذية وأطمعه وحشائش لا توجد عندنا (المقدسي، 1906، ص242)، وذكر بأنّ السودانيين لا تعامل بينهم إلاّ بالذهب والفضة، وأمّا القرماطيون وهم الجنس السوداني الوحيد المذكور عند المقدسي فتعاملهم بالملح (المقدسي، 1906، ص ص 242-243).

وبعد كتابات المقدسي يبرز لنا ابن حوقل في "**المسالك والممالك**" وعمله مشابه للأصطخري، غير أنّ اقتراب ابن حوقل من بلاد السودان ووصوله إلى أودغشت، أوفقه على بعض التفاصيل التي لم يكن بمقدور غيره أن يقف عندها، وحقّق له الأسبقية والريادة (NehemiaLevtzion, 196) في حجم المعارف الجديدة التي قدّمها عن هذا المنطقة، والأماكن المجاورة لها، فقد أعاد ضبط حدود البلاد ليجعها لا تزيد على خمسين ومائي مرحلة طولا، وأكثر عروض ممالكهم شهر أو نحوه (ابن حوقل، 1992، ص 34)، وهي حدّ غربي لمملكة الإسلام من جهة المغرب، وأول بلاد السودان "**أودغشت**" وصولا إلى "**أوليل**" (ابن حوقل، 1992، ص20)، وذكر بأنّ جميع أرض السودان تغطيها الرمال (ابن حوقل، 1992، ص42)، وسنحاول تفصيل ما أورده ابن حوقل انطلاقا من تقسيم معلوماته إلى:

1.3.4.معارف تتعلق بالجوانب التجارية

كان وصوله إلى أودغشت فرصة ليصف لنا العمليات التجارية التي أدهشته أرباحها، فذكر بأنّه رأى بأودغشت صكّا كُتب، وشهد عليه العدول باثنين وأربعين ألف دينار (ابن حوقل، 1992، ص65)، ما يدّل على قيمة الفوائد العظيمة المحصّلة من هذه التجارة، كما ترك لنا إشارات تفيدنا بمعرفة الطرق الموصلة إلى

بلاد السودان ومناطق الولوج إليه، فذكر تعطّل الطريق الشرقي التي كانت تربط بين مصر وغانة، وانتقل التّجار عنها إلى طريق سجلماسة–أودغشت (ابن حوقل، 1992، ص65)، كما ذكر أيضا بأنّ سلطان برقة له لوازم على القوافل الصادرة والواردة من بلاد السودان (ابن حوقل، 1992، ص70) ما يفيد إلى وجود طريق أخرى تربط برقة ببلاد السودان، وذكر بأهميّة الملح في التّجارة بين بلاد المغرب والسودان، وأشار إلى التفاوت في سعره بين دواخل البلاد وأقاصيه (ابن حوقل، 1992، ص98).

2.3.4. معارف تتعلق بالجوانب السياسية

ذكر ابن حوقل بأنّ "**حكام تادمكة**" هم من بني تانماك (ابن حوقل، 1992، ص101)، وذكر "**ملك أودغشت**" الذي تربطه روابط قويّة بملك غانة، ويُعتبر أغنى ملوك الأرض بما لديه من أموال مدّخرة من التبر، كما ذكر أيضا بأنّ "**ملك كوغة**" كان قويّا، وهو يهادي ملك غانة، وكل هؤلاء هم حاجة ماسة إلى "**ملوك أودغشت**"(ابن حوقل، 1992، ص98) بسب الملح الذي يصلهم من خلال هذه المدينة، كما تطرّق ابن حوقل أيضا في وصفه للنظام السياسي إلى نظام توارث الملك عند السودانيين عامة، فذكر بأنّ من سُنّة السودان إذا هلك الملك فإنّ ابن أخته هو من يخلفه في الملك من دون بقيّة أهله و أولاده (ابن حوقل، 1992، ص61).

وبعد ابن حوقل نجد كتابات "**المهلبي**"، قدم لنا معلومات فريدة في كتابه "**العزيزي**" الذي جمعه تيسير خلف، وقد قام هذا الكاتب بترتيب مادة كتاب المهلبي على طريقة كتاب تقويم البلدان لأبي الفداء (المهلبي، 2006، ص 18) المتأخّر عنه زمانيا، بحيث نجد هذا الكاتب يُدرج مدينة أودغشت ضمن بلاد المغرب، **ولا نعلم حقيقة ما إذا كان هذا هو تقسيم المهلبي نفسه أم لا؟** ولكن الأمر الواضح هو أنّ المهلبي أدرج أودغشت ضمن حدود دولة الإسلام، وهو الأمر الذي صرّح به المهلبي فقد تراجعت معه حدود بلاد السودان نحو الجنوب، وامتدت بلاد المسلمين لتضمّ من جهاتها الجنوبية مناطق أودغشت.

تطوّر معرفة المهلبي ببلاد السودان ينعكس بشكل واضح في طريقة تعامله مع هذه المنطقة، كمعطى طبيعي من جهة، وكمعطى بشري من جهة أخرى، ويُعتبر الأول من بين الجغرافيين السابقين الذي تناول وصف كل مدينة على حدة، وشمل وصفه إلى جانب المدينة وجغرافيتها أوصافا لسكانها وما يتعلّق بجوانبهم الحياتية المختلفة، كأنّه رحّالة يُدّون لنا ما كان يراه في هذه المناطق، فقد ترك لنا وصفا دقيقا لثلاث مدن سودانية هي أودغشت، زغاوة، وكوكو.

1.2.3.4.أودغشت

تطوّرت معرفة المهلبي بهذه المدينة، فوصف هواءها وأمطارها والنباتات التي تزرع بها، وأمّا وصفه للنواحي المتعلّقة بالبشر فقد ذكر بأنّ أهلها مسلمين يقرؤون القرآن ويتفقّهون، ولهم مساجد وجماعات أسلموا على يد "**المهدي عبيد الله**"، وكانوا كفارا يعظمون الشمس ويأكلون الميتة والدم (المهلبي، 2006، ص46)، كما أشار إلى أهمية هذه المدينة التي لا ينقطع إليها من كل البلاد، ما جعل أسواقها جليلة واسعة والمتولي عليهم قبيلة صنهاجة. (المهلبي، 2006، ص45).

2.2.3.4.زغاوة

ذكر بأنّها مدينتان، وذكر التّسمية المحلّية لكل مدينة، وهما "**مانان**" و"**ترازكي**"، وهم أمم كثيرة وطول بلادهم خمس عشر مرحلة في مثلها، ببيوتهم من جصوص، وكذلك قصر ملكهم الذي يعبدونه من دون الله تعالى، ويعتقدون أنّهم هم الذين يُحيون ويُميتون ويُمرضون ويُصحون.

تحدث المهلبي عن ملك الزغاوة الذي يزعم بأنّه لا يأكل ولا يشرب، وذكر لباس الملك المكون من سراويل من صوف رقيق، الارتشاح عليها الثياب الرفيعة من الصوف الأسماط، والخز السوسي والديباج الرفيع، وبقية الرعية فأكثرهم يأتزرون بالجلود، وحيوانات هذه المملكة المواشي من البقر والغنم والجمال والخيل، وأما زروعهم فأكثرها الذرة واللّوبيا ثم القمح، وديانة الزغاوة عبادة ملوكهم (المهلبي، 2006، ص54).

3.2.3.4.كوكو

هي عاصمة الملك الذي يظاهر رعيته بالإسلام هو ورجاله وثقاته، وزيّ ملكهم ورؤساء أصحابه القمصان والعمائم، غير أنّهم يركبون الخيل أعراء، إلى جانب هذا فإنّنا نجد أول إشارة تخص العمارة الإسلامية بهذه البلاد هي تصريح المهلبي بوجود مسجد في كوكو، ومصلّى للجماعة بين المدينين المذكورتين، وجميع سكان البلاد مسلمون، وهذه البلاد أعمر من مملكة الزغاوة، أما أموال ملك كوكو فأكثرها الملح (المهلبي، 2006، ص55).

وفي نهاية هذه المرحلة نجد محاولات "**البيروني**" في إعادة بعث المنهج الفلكي في الكتابة، فنجده يحدّد مواقع بعض المدن من بلاد السودان التي جعلها مصدرا مهمّا للعبيد، ويسمي مناطق غرب القارة بسودان المغرب، وحدّد عليها موقع كوكو بخط طول 30° وبخط عرض 5°، كانم بخط طول 35° وبخط عرض 3°، وذكر بأن ذهب غانة يتواجد في مناجم خاصة، وحدّد موقعها بخط طول 25° وبخط عرض 13°، وكذلك حدّد إحداثيات مدينة أودغشت، فذكر أنها تقع في صحراء المغرب بخط طول 15° أما خط عرضها فهو 26°(cuoq, 1975, p80)، ومع البيروني ننتهي هيمنة مصنفات المشارقة على خبر بلاد السودان بعد أن كان هؤلاء قد استفردوا لخبر السودان ورسموا بذلك انطباع العرب عن هذه الأقاليم ، انتهت هذه المرحلة لتفتح مرحلة جديدة تخرج فيها بلاد السودان من الهامش لتصبح مع البكري والإدريسي وابن بطوطة فيها أكثر وضوحا، تتشعب المعارف حولها لتشمل مختلف النواحي الطبيعية والبشرية .

خاتمة

تجدر الإشارة في نهاية هذا المقال إلى مجموع النتائج التي تمّ التوصل إليه نلخّصها فيما يلي:

منذ الإشارة الأولى التي وردت في المصادر الجغرافية العربية في القرن الثاني هجري (08م)، وصولا إلى كتابات ابن حوقل والمهلبي في القرن الرابع هجري (10م) استفردت المصادر الجغرافية بأخبار بلاد السودان على الرغم مما قد يسجّل على هذه المصادر من تحفّظات وملاحظات.

تحكّمت الأنماط المعتمدة في عملية التأليف في نوعية المعلومات الواردة في هذه المصادر الجغرافية، بداية بمصادر الجغرافيا الفلكية ثمّ الوصفية، واهتمت كلّ منهما بنوع مختلف من الأخبار من تحديد رياضي فلكي للأقاليم، إلى اهتمام ووصف لمظاهر الجغرافيا الطبيعية والبشرية.

لم يتّفق أصحاب المصادر على شروط محدّدة لقبول الخبر عن بلاد السودان أو رفضه، وبقيت هذه المسألة لاجتهاداتهم، وهو ما سمح بامتزاج كبير بين الأسطورة والواقع في أخبار بلاد السودان، اختلفت فيها درجة صحة المعلومة بين شهادات الجغرافيين بين الزعم، وبين النق عن رؤية ومشاهدة مباشرة.

قدّمت لنا كتب الجغرافيا الوصفية معطيات جديدة عن هذه البلاد لكنها لم تكن بحجم تطلّعات هذه المدرسة، فقد كان من مناهجها الاقتصار على وصف البلاد الإسلامية، ولأن بلاد السودان كانت في تقسيمات هذه المدرسة خارج حدود الإسلام فقد تمت الإشارة إليها باقتضاب شديد.

وفّى بعض أصحاب المصادر بمنهج قبول الخبر أو رفضه كما صرحوا بذلك في مقدمات كتبهم. تطوّرت المعرفة العربية عن بلاد السودان تطوّرا ملحوظا وذلك عند مقارنة منتوج الفكر الجغرافي للقرن الثاني والثالث هجري، مع منتوج القرن الرابع هجري(10م)، فقد أخذت الصورة عن هذه الأقاليم تتوضح أكثر فأكثر.

لقد شكّلت لنا المعلومات التي تضمّنتها هذه المصادر الجغرافية أهمّ المصادر التي نملكها على الإطلاق عن وصف بلاد السودان، بل إنها أحيانا كانت تمثّل إمّا المصدر الوحيد أو الأهم الذي نملكه على الإطلاق.

قائمة المصادر المراجع:

1.المصادر:

- ابن حوقل، النصيبي، (1872)، **المسالك والممالك**، ليدن، بريل.
- ابن حوقل، النصيبي، (1992)، **صورة الأرض**، بيروت، مكتبة الحياة.
- ابن خرداذبه، أبو القاسم، (1889)، **المسالك والممالك**، ليدن، بريل.
- ابن خلدون، عبد الرحمن، (2000)، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، بيروت، دار الفكر.
- ابن سعيد، علي، (1982)، **كتاب الجغرافيا**، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.
- الأصطخري، إبراهيم، (1927)، **المسالك والممالك**، ليدن، بريل.
- البكري، أبو عبيد الله، (2003)، **المسالك والممالك**، بيروت، دار الكتب العلمية.
- الصفدي، صلاح الدين، (2000)، **الوافي بالوفيات**، بيروت، دار إحياء التراث.
- الطبري، محمد بن جرير (1987)، **تاريخ الأمم والملوك**، بيروت، دار الكتب العلمية.
- المسعودي، علي بن الحسين، (1893)، **كتاب التنبيه والإشراف**، ليدن، بريل.
- المسعودي، علي بن الحسين، (1973)، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، بيروت، دار إحياء التراث.
- المقدسي، شمس الدين، (1906)، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ليدن، بريل.
- المهلبي، الحسن بن أحمد، (2006)، **الكتاب العزيزي أو المسالك والممالك**، دمشق، التكوين للطباعة والنشر.
- الكتبي، محمد بن شاكر، (د.ت)، **فوات الوفيات**، بيروت، دار صادر.
- النديم، محمد ابن اسحاق، (د.ت)، **كتاب الفهرست**.

- الهمذاني، ابن الفقيه، (1885)، **مختصر كتاب البلدان**، ليدن، بريل.
- اليعقوبي، أحمد ابن أبي يعقوب، (1918)، **البلدان**، النجف، الحيدرية.
- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب، (1964)، **تاريخ اليعقوبي**، النجف، الحيدرية.

2.المراجع:

- أندريه، مايكل، (1983)، **جغرافية دار الإسلام البشرية حتى منتصف القرن الحادي عشر**، دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي.
- بروكلمان، كارل، (د.ت)، **تاريخ الأدب العربي**، القاهرة، دار المعارف.
- حسن، زكي محمد، (1981)، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، بيروت، دار الرائد العربي.
- حميدة، عبد الرحمن، (1995)، **أعلام الجغرافيين العرب ومقتطفات من آثارهم**، دمشق، دار الفك.
- خصباك، شاكر، (1986)، **الجغرافيا عند العرب**، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
- الدفاع، عبد الله، (1993)، **رواد علم الفلك في الحضارة العربية والإسلامية**، الرياض، مكتبة التوبة.
- الزركلي، خير الدين، (2002)، **الأعلام**، بيروت، دار العلم للملايين.
- السيد، غلاب محمد، (1984)، **منهج العلماء المسلمين في البحث الجغرافي**. بحوث المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول.
- الشكري، أحمد، (1999)، **الإسلام والمجتمع السوداني إمبراطورية مالي 1230م- 1430م**، أبو ظبي، المجمع الثقافي.
- الفندي، جمال، (1982)، **الجغرافيا عند المسلمين**، بيروت، دار الكتاب اللبناني.
- فيج، جي. دي، (1982)، **تاريخ غرب إفريقيا**، القاهرة، دار المعارف.
- قاسم، جمال زكرياء، (1996)، **الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية**، الكويت، دار الفكر العربي.
- كارلو، نايلنو، (1993م)، **علم الفلك تاريخه عند العرب في القرون الوسطى**، بيروت، مكتبة الدار العربية.
- كراتشكوفسكي، إغناطيوش، (1693)، **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**، القاهرة، لجنة التأليف والترجمة والنشر.
- ميتز، آدم، (1958)، **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع هجري أو عصر النهضة في الإسلام**، القاهرة.
- مينورسكي، (1985)، **الجغرافيون والرحالة المسلمون**، الكويت، الجمعية الجغرافية الكويتية.
- نيقولا، زيادة، (1987)، **الجغرافية والرحلات عند العرب**، بيروت، الشركة العالمية للكتاب.
- Cuoq joseph ,(1975) ,**Recueil Des Source Arabes Concernant L 'Afrique Occidentale Du 8e au 16e siécle** ,france ,centre national de la recherche scientifique.
- NehemiaLevtzion ,(1968) ,**Ibn-hawgal, The Cheque, and Awdaghost** ,The Journal African History.